دور الطلبة في تحرير وهران الثاني من الاحتلال الإسباني عام 1792.

أ/ محمد بوشنافي
جامعة سيدي بلعباس

مما لا شك فيه، أن وهران والمرسى الكبير، شكلا لفترة طويلة من الزمن "شوكة في حلق حكام الإياله الجزائرية" الذين وإن مكنوا من توحيد كل أجزاء الجزائر وإخضاعها لحكمهم. رغم وجود بعض المناطق التي تمتعت بنوع من الاستقلال الذاتي عن السلطة المركزية، فإنهم بقوا عاجزين على فعل ذلك فيما يخص هذين الثغرين، إذ باءت كل محاولات استردادهما بالفشل، باستثناء محاولة الداي محمد بكداش (1707 - 1710م) الذي تمكن بمساعدة صهره أوزن حسن، وباي الغرب آنذاك مصطفى بوشلاغم، من استرجاع المدينة عام 1708م، رغم ذلك لم يكن غلا ظرفيا، إذ سرعان ما تمكن الإسبان من إعادة احتلالهما سنة1732م[1]. ويبقى هؤلاء يفرضون سيطرتهم المطلقة عليها، رغم محاولات بايات المنطقة المتكررة لطردهم منها إلى غاية 1791 م لما تمكن الباي محمد بن عثمان –أو الكبير- من إجبارهم على توقيع معاهدة الانسحاب التي حدثت في شهر فبراير عام 1792م إلا أن تحريرها لم يكن بالأمر الهين، وإنما استغرق وقتا طويلا، ومحاولات عديدة فاشلة، اعتمد فيها الباي على كل فئات المجتمع إلى جانب القوات الرسمية. أشرك سكان المنطقة المحيطة بالمدينة والطلبة لفرض حصار طويل الأمد، هدفه تضييق الخناق على الإسبان المتحصنين وراء أسوارها ومنع تحركاتهم في المنطقة.

إن هذا الوضع المضطرب الذي عاشته المنطقة الغربية للإيالة منذ القرن السادس عشر، بعد احتلال المرسى الكبير عام 1505م مثم وهران في 1509م، عكس بايليك الشرق والتيطري اللذين عرفا مرحلة طويلة من الهدوء والاستقرار السياسي، كان له أثره البارز على نفسية السكان، وخاصة العلماء منهم، الذين

ركزوا كل جهودهم وكتاباتهم للدعوة إلى الجهاد ضد "الكفار". فنجدهم يمجدون كل داي أو باي يسعى إلى طرد الإسبان وتحقيق مبتغاهم، بينما يذمون كل من يتقاعس على أداء هذا الواجب الديني، فأصبح العلماء وطلبتهم وراء حركة الجهاد ضد الإسبان يعتمد عليهم البايات في تجنيد العامة، وقيادة الصفوف الأمامية، وهذا ما حدث أثناء الفتح الأول وكذلك الحال بالفتح الثاني.

سيقتصر موضوعنا على ابراز دور الطلبة في فتح وهران الثاني، خاصة وأن الباي محمد الكبير كان قد اعتمد على هذه الفئة لفرض حصار طويل الأمد ضد الإسبان، فأسكنهم في الرباطات، كرباط حبل المائدة وإيفري، ووفر لهم كل ما يحتاجون إليه من مؤن وأسلحة، وأغدق عليهم الأموال. فكان نتاج ذلك أن نجح الطلبة في الحد من تحركات الإسبان الذين كانوا قبل ذلك يعيشون فسادا في المنطقة، من خلال هجومات مباغتة على سكان المناطق المجاورة للمدينة، فينهبون خيراتهم، ويختطفون الرجال والنساء والأطفال، فإما أن ينصّروهم أو يبيعونهم كعبيد في أسواق إسبانيا، فتضررت الحياة الإقتصادية والإجتماعية في المنطقة وانتشر الذعر والخوف بين سكانها. ومما زاد من خطر الإسبان، اعتمادهم على العملاء والجواسيس من العرب الذين كانوا ينقلون إليهم الأخبار بل ويساعدونهم في النهب والسلب[2].

وبناء على ما سبق ذكره، يمكننا أن نطرح مجموعة هامة من التساؤلات، ومنها مايلي: لماذا إعتمد محمد الكبير على شريحة الطلبة في حصاره لوهران؟ وما هي الأساليب التي اعتمدها في تجنيدهم؟ وكيف كانت حياتهم داخل الرباط؟ وما مدى مساهمتهم في حصار وهران ثم في المعركة الحاسمة ضد الإسبان؟ للإجابة على هذه الأسئلة، كان اعتمادنا كبيرا على أهم مصدرين سجلا أحداث الفتح الثاني ودور الطلبة في ذلك، إنهما "**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**" لأحمد بن سحنون الراشدي، والذي حققه المرحوم المهدي البوعبدلي، و"الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" لمحمد المصطفى بن عبد الله بن زرقة الدحاوي، وتكمن أهميتها في أن صاحبيهما كانا من الموظفين الرسميين لدى الباي محمد الكبير، فالأول كان مصاحبا لولده وولي عهده عثمان، أما الثاني فكان يشتغل كاتبه الخاص، وكان الباي قد كلفه بتسجيل أحداث الفتح الثاني، مما يجعلهما على إطلاع بكثير من القضايا والأمور الدقيقة والسرية. وهناك مصدر آخر سجل لهذا الفتح هو "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" لمحمد أبوراس الناصري، غير أنه لم يكن شاهدا على الأحداث، حيث كان عائدا من رحلته إلى الحجاز ولم تصله الأخبار إلا لـمّا كان بتونس.

أ- الباي محمد الكبير وإحياء فكرة الرباط :

لم تبرز فكرة المرابطة حول وهران مع محمد الكبير، وإنما وجدت قبله بفترة طويلة من الزمن، ربما لأهمية وهران وموقعها الاستراتيجي وتكالب الأعداء على احتلالها. فابن سحنون يخبرنا "رباط صلب الفتح" الذي كان يلجأ إليه المتعبدون والزاهدون، وكان يقع فوق تلة تطل على المدينة، كما ارتبطت به حادثة مقتل علي بن يوسف بن تاشفين، آخر حكام الدولة المرابطية، على يد جنود عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي، وذلك بعد سقوطه في جرف وهو يمتطي فرسه [3] .

ويظهر أن تزايد عدد الرباطات على طول سواحل بلاد المغرب العربي، ارتبط بظهور الهجمة الصليبية الشرسة التي قادتها كل من إسبانيا والبرتغال في إطار مشروع استعماري، يهدف إلى اقتسام المنطقة بين هاتين الدولتين من خلال معاهدة "توردیسلاس Tordisillas " عام 1469م ولجوء الأندلسيين إلى المنطقة لاحتلال سواحلها، فشعر السكان بالخطر المحدق بهم وقاموا بتحصين السواحل، والاستعداد للرد على أي هجوم. فكانت الرباطات التي يظهر أنها لم تقم بالدور المنوط بها لضعفها أمام قوة العدو، فسقطت المدن الساحلية الداخلية الواحدة بعد الأخرى، ومنها المرسى الكبير عام 1505م ووهران 1509م، وفي هذا الإطار يخبرنا حسن الوزان (ليون الإفريقي)، أن احتلال وهران تم بعد معركة دامت يوما واحدا فقط، حيث اضطر سكانها إلى هجرها بعد تلقيهم لخسائر فادحة [4] ، والتي قدرت بأربعة آلاف قتيل وخمسة آلاف أسير، وخسائر نصف مليون دوكة ذهبية، حسب بعض المصادر الغربية[5] .

في العهود الأولى للتواجد الاسباني بوهران والمرسى الكبير، لم يخضع الرباط لأي تنظيم. وقد حاول الداي محمد بكداش، أثناء الفتح الأول أن يخضعه لبعض التنظيم، بغرض زيادة عدد الطلبة الوافدين إليه، إلا أنه رغم كل ذلك فإن عددهم لم يتجاوز الألف طالب في أحسن الأحوال، وكان معظمهم من المتطوعين. لقد استفاد الباي محمد الكبير من هذه النقائص، وتجارب سابقيه، ولهذا لما قرر إحياء فكرة الرباط جعله تحت إشرافه الخاص، وتحمّل كل أعباء المرابطين فيه كالمؤن والتسليح عين له مسؤولا ومساعدين يعاضدونه في مهماته، ووصل به الحد أن أصبح يتدخل شخصيا لفض النزاعات والخلافات التي كانت تنشب بين الطلبة أنفسهم من حين لآخر أو بينهم وبين سكان المنطقة.

ولكن قبل أن يعتمد الباي على الطلبة في الرباط، كان يقصد ضواحي وهران سنويا، فيرابط مدة يوم أو يومين ولكن دون أن يلاقي الإسبان، ثم يغادر المنطقة عائدا إلى عاصمته معسكر[6] ، وهي عادة دأب عليها بايات المنطقة ربما لتذكير الإسبان بأن قضية تحرير وهران كانت لا تزال قضيتهم الأساسية.

بعد ذلك أصبح الباي يعتمد على سكان المنطقة في حصار الإسبان، وغايته من ذلك مداومة الرباط، ولتشجيعهم على ذلك منح هؤلاء المرابطين امتيازات شتى، وفي هذا الإطار يقول ابن سحنون:" فنادى في رعيته –أي الباي- من ارتحل إليه أي الرباط سقطت عنه المطالب المخزنية وبقي محترما موقرا، فاجتمعت فيه أمة من الناس من كل ناحية بأموالهم وأولادهم، فنزلوا فيما بين سيدي معروف والبريدية حتى عين تانسالمت [7]"، وليشجعهم على البقاء مرابطين وفر لهم كل ما يحتاجون إليه، فكان يرسل إليهم مؤنا مختلفة خلال فصلي الشتاء والصيف، ويرسل معها من يقسمها من العلماء لأنهم كانوا محل احترام وتقدير بين السكان، كما سمح لهم بحراثة المنطقة حتى اقتربوا من أسوار وهران [8].

إلا أنه مع مرور الوقت تراجعت همة المرابطين، وتقاعسوا على مراقبة حركة العدو ومحاصرته، فعاد الإسبان إلى سابق عهدهم. ولهذا فإنه بعد عودة الباي من غزوته إلى الجنوب، قرر أن يعيد تنظيم الرباط وتشديد الحصار على الاسبان لإجبارهم على الاستسلام والرحيل عن وهران. فارتأى في هذه المرة، أن يعتمد على الطلبة لما لهم من روح جهادية وإقبال على الشهادة.

ب - الباي محمد الكبير وتجنيد الطلبة :

استفاد الباي محمد الكبير من تجربة سابقيه في تجنيد الطلبة، كما يخبرنا ابن زرقة، وذلك لما علم من بلائهم واستماتتهم في القتال خلال الفتح الأول، فأصدر أمرا لتجنيدهم حتى يستفيد منهم ومن إرادتهم الصلبة في القتال [9].

لقد لعب الدافع الديني دورا أساسيا في تجنيد الطلبة وذلك لأن العلماء أو (الحزب الديني) كما يسميه الدكتور أبو قاسم سعد الله [10] ، كانوا من أكبر الدعاة إلى جهاد الاسبان. يضاف إلى ذلك وزن هؤلاء داخل المجتمع وخاصة في بايليك الغرب الذي عرف انتشارا ملحوظا للطرق الصوفية والزوايا، ويظهر أن ذلك كان له ارتباط وثيق بالوضع السياسي والعسكري السائد آنذلك. على أن ابن زرقة يذكر بأن غاية الباي من تجنيد رجال العلم كان التبرك بهم وبدعوتهم، فلما وصله خبر استشهاد أحد الطلبة في هجوم على الإسبان، أصابه حزن كبير، وراسل الطلبة قائلا:" يكفيكم الرباط وقراءة القرآن والعلم المطلوب منكم الآن هو أن تلزموا محلتكم ودرس كتبكم وقراءتكم، فإنا إنما قدمناكم تبركا بكم ليكون قدومنا لها – أي وهران- بالله لا بأنفسنا، ولا زائد إلا حبكم والتماس صالح دعائكم [11]".

كما راسل الباي كبار علماء المنطقة، لمساعدته على تجنيد الطلبة لما كان لهم من تأثير وحظوة، فكانت كلمتهم مسموعة، وأمرهم مطاع بين جماعة الطلبة. ومن بين هؤلاء العلماء الذين راسلهم الباي نذكر، محمد بن علي بن الشارف المازوني، فجاءه رفقة ولده السيد هني وأخوه محمد، ومعهم حوالي مائتي طالب [12].

ولم يكتف الباي بمراسلة العلماء، وإنما كلف مجموعة من الطلبة للقيام بمهمة التجنيد، فنجده في إحدى المرات يجهز ستة منهم :" فألبسهم لباسا جيدا ودفع لهم عدة رفيعة وأمة كاملة ودراهم ووجههم يسيرون في البلاد القريبة يجمعون الطلبة ويرغبونهم. وبعد أيام رجعوا رفقة أربعمائة طالب تمركزوا برباط ايفري، فأرسل إليهم الباي ما يحتاجون إليه من أسلحة وغذاء وغيره [13]". كما استجاب لدعوى الباي عدد كبير من طلبة المنطقة.

فإلى جانب ما سبق ذكره، توافد الطلبة جماعات على رباطات وهران من عدة مناطق. وفي هذا المجال يقول ابن زرقة:" وانسابوا إليه كل طريق وجاءوه من كل فج عميق وانفقوا في طريقهم إليه الطارق والتليد[14]".

لقد تحمل هؤلاء الطلبة مشقة السفر وأتعابه، غير أنهم على ما يظهر كانوا يلاقون ترحابا منقطع النظير من طرف سكان المناطق التي يمرون بها، فكان هؤلاء يحسنون ضيافتهم ويقدمون لهم الطعام وكلّ ما يحتاجون إليه أثناء سفرهم. ويخبرنا ابن زرقة أن الطلبة المتوجهين من معسكر إلى وهران، وهم طلبة المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد الكبير بمعسكر، لاقوا استقبالا شعبيا واسعا عند وصولهم إلى منطقة واد الحمام فيقول:" وبات الطلبة ليلة خروجهم بوادي الحمام فأكرمهم أهله بسمين اللحم وخالص الطعام، والبعض ذبح لهم الدجاج واستعذروا بأن الشتاء قطنة الهزال، وقبل الطلبة منهم ذلك ولم يقابلوهم بسوء مقال لأنهم تلقوهم بالفرح والسرور[15]". ونفس الترحاب لاقاه الطلبة بعد وصولهم إلى وادي تليلات التي أقاموا بها أياما في ضيافة سكانها ورعاية خاصة من الباي نفسه [16].

استطاع الباي بفضل سياسته الرشيدة في دعوة الطلبة إلى التجنيد في رباطات وهران، أن يجمع عددا معتبرا منهم فاق الألف ومائة طالب حسب ابن زرقة، منهم أربعمائة طالب ينتمون إلى المدرسة المحمدية بمعسكر، وأكثر من مائة طالب قدموا من منطقة غريس، ومائتي طالب جاؤوا مع الشيخ المازوني، إلى جانب أربعمائة طالب توافدوا من نواحي تلمسان وكترارة وندرومة وغيرها، استجابة لدعوة العالم محمد أبي يوسف الذي كان يقطن بضواحي بني عامر [17].

وما يؤكد تزايد أعداد الطلبة المجندين، ما يذكره ابن سحنون عند حديثه عن توزيع الطعام والعطاء عليهم. فيخبرنا أن الباي لجأ إلى تقسيمهم إلى دواوين، حيث وصلت إلى حوالي مائة ديوان، وفي هذا الإطار يقول:" كل هذا وأعدادهم تتزايد حتى أنهم قسموا الرزق أول رجب على نحو الستين ديوانا، ثم قسمناه بينهم أول شعبان على نحو التسعين ديوانا، وقسم في آخره على ما ينيف على المائة، وتصدق عليهم أول شعبان بزيادة ريال لكل شخص، وكان قد اشترى لهم نحو الألف سيف"[18]، وحسب هذا الإحصاء فإن عدد الطلبة فاق الألفين.

وإلى جانب اعتماد الباي محمد الكبير على العلماء والطلبة في التجنيد، فإنه أصدر مجموعة من القرارات تصب في هذا الإطار، ومنها أنه منع التدريس في الحضر والبدو وجعله يقتصر على الرباط فخصص لكل واحد خمسين ريالا لا ينقص مهما زاد عددهم، وكذا الحال بالنسبة لمؤدب الصبيان الذي شغله التحاقه بالرباط عن مهمته، فتكون له أجرة كاملة مع ما يناله من عطاء كإحسان من الباي [19].

ج- تكليف العلماء لقيادة الطلبة المرابطين :

كان الباي المشرف الأول على الرابطات، إلا أنه فضل تعيين جماعة من العلماء ليكونوا المشرفين الميدانيين على الطلبة داخل الرباط عوض رجال من الجيش، لأن الطلبة كانوا يستأنسون بالعلماء ويكنّون لهم احتراما كبيرا. فعيّن محمد بن عبد الله الجيلالي مسؤولا على الرباط، غير أننا لا نجد تعريفا مفصلا لهذا الفقيه سوى أنه كان المشرف على المدرسة المحمدية بمعسكر، أو ما يذكره ابن سحنون أنه عاش حياة علمية، ثم سافر إلى فاس فجالس علماءها وتلقى على أيديهم، ثم عاد إلى معسكر، ومحمد المصطفى بن زرقة الدحاوي كاتبه الخاص، حيث كلفه بتسجيل الحوادث المتعلقة بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره، وكان هذا التعيين بعد انزال الطلبة برباط وادي ايفري، وفي هذا المجال يذكر ابن سحنون في قصيدة مطلعها[20] :

ورتب المرابطين في الجبل	من كل حبر عن هوى الموت جبل
وكـــل مقدام همام و بطـــل	منـــذ بـــدا بـــاد الظـــلال وبطـــل
مؤمـــرا لشيخنا الجيلالـــي	مـــحـــمـــد الأدق بالإجـــــــلال
ملتـزمـــا لـــرزقهم جميعـــا	مـــلـــبيـــا لـــقـــولـــهم سميـــعـــا

كما أمّر على المرابطين إلى جانب من سبق ذكرهم، الفقيه محمد بن أبي طالب المازوني الذي عينه على رأس طلبة مازونة، والأستاذ القارئ محمد بن يوسف، الذي كان له دورا بارزا في تجنيد طلبة

ترارة وندرومة وما جاورها من ضواحي تلمسان[21]، والشيخ محمد بن أبي سيف كقائد على الغرابة وقدور المحلي قائدا للمكاحلية، أي أنه عين مسؤولا على كل جماعة من المجاهدين والطلبة حسب انتمائهم الجغرافي أو العسكري [22].

وعموما فإن تكليف العلماء لقيادة الطلبة كانت له آثاره الإيجابية، برزت في ذلك التلاحم الذي تولد بين القيادة والطلبة، فكانت العلاقة بين الطرفين علاقة أبوة وعطف. حتى أن ابن زرقة يخبرنا بأن الفقيه محمد بن أبي طالب المازوني:" جاء ماشيا من مازونة ودابته تقاد وراءه وهو يأمر الطلبة أن يتداولوا ركوبها وكبر في قلبه أن يركب وطلبته يمشون، إلى أن أشرفوا على وهران"[23].

د- الاعتناء بالطلبة المرابطين وتمويلهم بكل المستلزمات:

دعا الباي الطلبة المجندين إلى التحصن في ربطي جبل المائدة و ايفري، لموقعها الاستراتيجي وأهميتها في حصار وهران. فالبنسبة لرباط جبل المائدة، فإنه يشكل نقطة ضعف في دفاعات المدينة، كما أنه يمكن من قطع الطريق بين وهران والمرسى الكبير. أما رباط ايفري فيقع على طريقين، طريق تؤدي إلى المرسى الكبير وأخرى نحو وهران[24]، وبه كهوف يتخذها المرابطون كبيوت لهم.

بذل الباي جهودا كبيرة لتوفير كل ما يحتاجه الطلبة في داخل الرباط، فنجده يرسل إليهم أنواعا شتى من الطعام كالسمن والزيت والفواكه والأغنام والأبقار. وكان الرباط في بداية الأمر يتوفر على مطبخ واحد لجميع الطلبة، إلا أن تزايد أعدادهم جعل الطباخين يعجزون على سد حاجياتهم كلها. فارتأى الباي أن يوزعهم إلى دواوين-أو جماعات- من خمسة وعشرين طالبا في كل ديوان، ويدفع لكل ديوان ما يكفيه من الطعام والأموال، بحيث قدرت حاجة كل ديوان أربعين صاعا من القمح في كل شهر إضافة إلى خمسة وعشرين ريالا كمصاريف متنوعة.وكان الباي في بداية الأمر يرسل القمح دون طحنه، ولكن بسبب المناوشات التي أصبحت تحدث بين الطلبة والسكان عند الطحن قرر الباي أن يرسله لهم مطحونا مع إنقاص ريال واحد من ميزانية كل ديوان، وبعد ذلك بنى لهم ثلاث أرحاء تشتغل بماء نهر مسرغين[25] . وإلى جانب الغذاء يخبرنا ابن زرقة أن الباي وفر للطلبة كل مستلزمات الحياة داخل الرباط، ومنها الخيام والأواني والخدم وغيرها، فنجده يقول في حديثه عن طلبة المدرسة المحمدية:" واستعد الطلبة أولا خيمتين عظيمتين كل منهما تحمل ما ينيف عن المايين، وعين الحطابين والطباخين وجميع ما يحتاجه الطلبة المرابطون في المآل والحين كالأواني والزيت والسمن للتصبيح –أي لإشعال المصابيح- والأكل، وأعدّ لهم حتى المراجل للوضوء والغسيل[26] .

كما كان الباي يراعي الظروف المناخية للمنطقة، وما قد يعانيه الطلبة من قساوتها ولهذا كان يرسل إليهم جلود الأبقار، إما لترقيع أحذيتهم [27]أو لاستعمالها أثناء تساقط الأمطار[28] .

كما تشير المصادر، إلى أن الباي محمد الكبير لم يبخل على طلبته في مجال العطاء، فكان يخصص لهم بين الحين والآخر مبالغا مالية يقوم الأمناء بتوزيعها عليهم، وكان قد خصص لكل ديوان أربعة وعشرين ريالا كما سبق ذكره. ويخبرنا ابن زرقة أنه في إحدى المرات بعث إليهم ألف ريال مع سي عبد القادر بن البوري، وأمر أن يتحصل كل خمسة وعشرين طالبا على نصيب قدره خمسة عشر ريالا[29].

وحتى يقرب الأسواق من رباط الطلبة ليتمكنوا من اقتناء ما يحتاجون إليه، أصدر الباي أمرا يمنع بموجبه إقامة الأسواق على طول المنطقة الممتدة من وادي مينا قرب غليزان شرقا حتى أحواز تلمسان غربا، وسمح بإقامتها قرب رباط يفري[30]. كما عمل على توفير الأسلحة للطلبة، فجهزهم بالسيوف والبنادق، وقد كلف كلا من محمد بن عبد الله بن الجيلالي، والطاهر بن حواء بتسليح طلبة المدرسة المحمدية بمعسكر مع تقييد ذلك في دفتر تسجل فيه أسماء الطلبة وأماكن قدومهم والأسلحة التي سلمت لهم [31]، وكان سخيا في هذا المجال فنجده يقدم للطلبة كل أنواع الأسلحة بسخاء. فلما قدم إليه طلبة مازونة استقبلهم أحسن استقبال "وأفرغ عليهم البارود والسلاح والرصاص وأحجار الإقتراح وخرجوا من عنده مسرورين[32] ".

ومقابل ذلك كان الباي يحث الطلبة على اتقان استعمال السلاح بالتدريب المتواصل، فلقد أمر طلبة المدرسة المحمدية بالتدرب على ذلك قبل تنقلهم إلى وهران، وذلك لأنه لم تكن لهم دراية بذلك لانشغالهم بالدراسة والعلم، يقول ابن زرقة :" وكان سيدنا الأمير... لما قسم على الطلبة البارود بأم عسكر أمرهم بضربه في المناضلة تعليما لهم وترويحا للقلوب من الضجر... فنجدهم تارة يقرؤون وتارة يتناضلون[33]".

هـ- استماتة الطلبة في قتال الإسبان وأعوانهم:

شارك الطلبة إلى جانب شيوخهم في معارك تحرير وهران، يدفعهم إلى ذلك روح الجهاد وحب الشهادة في سبيل الله، وقد أبلوا في ذلك بلاء حسنا، وكانوا قد بايعوا الباي على الشهادة وذلك لما كان بمعسكره في مسولان قرب وهران، حيث انتخب خمسمائة منهم "بايعوه على الموت، فكسا كل واحد كسوة جيدة وأعطاه دراهم وأمرهم بملازمة الوادي المؤدي إلى حدائق البلد ويأتيهم فيه مأكلهم ومشربهم، ورجع الباقي إلى يفري كما كانوا [34]".

فرغم أنه لم تكن لهم دراية باستعمال السلاح وفنون القتال، فإنهم استطاعوا اتقان ذلك في فترة وجيزة وبالتالي فلا يمكننا أن ننكر دورهم أو نقلل من أهميتهم، لقد كان أثرهم بارزا في مواجهة الإسبان وعملائهم فضيقوا عليهم الخناق وأبدوا مقاومة شرسة في قتالهم أينما صادفوهم، فكانوا يراقبون تحركاتهم من أعلى الجبل ومتى خرجت طائفة منهم انقضوا عليها وتركوها بين قتيل وجريح أو فار بنفسه. ورغم ذلك نجدهم لا يهملون قراءة القرآن والفقه والنحو، حيث يبيتون يتلون القرآن ولا ينامون إلا حوالي الساعتين فقط[35].

من المعارك التي دارت رحاها بين الطلبة من جهة والإسبان ومساعدوهم المغاطيس[36] من جهة أخرى، ذلك الهجوم الذي تعرض له الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني وطلبته (مائتي طالب) أثناء اقترابهم من وهران، حيث داهمهم الإسبان ومعاونوهم من العرب الذين أعلموهم بمكان تواجد الطلبة كما حقروا من شأنهم لما أخبروهم "أن أكثرهم صبيان ولم تكن لهم بالحروب تجربة، وقدروا في نفسهم الخبيثة أنهم إن أدركوا من جدهم حثيثة يستأصلون الطلبة عن آخرهم، فريقا يقتلون وفريقا يأسرون ويقطعونهم بأسرهم[37]". وكان هجوم العدو ليلا، إلا أن الطلبة تفطنوا له، فبادروا بفتح صرر البارود وملئ بنادقهم دفاعا عن أنفسهم، وأما من عجز منهم على ذلك أخذ يلتقط الحجارة من الأرض ويرمي بها الأعداء. وانتهت المعركة بنجاة الطلبة بعد وصول المدد إليهم من مسرغين ويفري، حيث لجأوا إلى الجبل بعدما قتلوا عددا من الأعداء، في حين لم يصب منهم إلا طالبين أو ثلاثة، فبعث إليهم الباي من يسعفهم[38].

كما تتحدث نفس المصادر عن معركة أخرى جرت في منطقة الأفوال في أوائل جمادى الأولى 1205هـ فتواصل القتال فيها طيلة النهار، حتى أجبر الطلبة الأعداء على التراجع وراء الأسوار بعدما قتلوا منهم ستة وجرحوا إثني عشر آخرين. غير أن الرصاص والبارود نفذ من الطلبة، مما اضطرهم إلى الرمي بالحجارة ولما علم الإسبان بذلك ارتدوا عليهم وتكالبوا في قتالهم، فقتلوا منهم ثلاثة، أحدهم حامل الراية. ولما علم السيد الطاهر بن حواء بما وقع للطلبة قفل راجعا لدعمهم إلا أنه :أصيب في ذراعه الأيمن قرب الأكحل ببندقية (أي رصاصة) خرجت من منتهى عضده ثم دخلت جوفه"، وبقي يعاني من جرحه مدة ليلتين حتى استشهد عقب صلاة العشاء ليلة الخميس ثاني جمادى الثانية. فكانت خسارته كبيرة على الطلبة "فقدت بفقده محاسن الأخلاق، وعدم معه الحياء من أمثاله على الإطلاق، وذهب الوفاء والإنصاف ولم يبق أحد مثله مصاف، وبكته العيون الجامدة، والقرائح الخامدة رحمه الله وأسكنه فسيح الجنان، وأحله منازل الرضى والرضوان[39] ". كما يذكر ابن زرقة أن دمه ينفح مسكا وهو يتطهر به تبركا[40].

أما معركة الرفافيد فكانت في مطلع جمادى الثانية 1205هـ، ويخبرنا ابن زرقة أن الطلبة واجهوا فيها ترسانة قوية من الأسلحة، حيث استعمل الإسبان المدافع والقنابل، في حين أن الطلبة لم يملكوا إلا المكاحل (أي البنادق) والأسلحة البيضاء، كما عانوا من نقص في البارود والرصاص. ورغم ذلك أبلوا بلاء حسنا في مساعدة بعضهم بعضا والتدافع نحو الشهادة، وكانت نتيجة المعركة استشهاد طالبين وجرح ثمانية منهم[41].

كما جرت معارك أخرى شارك فيها الطلبة ضد الأعداء، ومنها قتال وقع عند برج العيون لما أجبر الطلبة أعداءهم على التحصن وراء خنادقهم، ولم يصب فيها إلا طالبين جرحا جروحا خفيفة[42]. ويخبرنا ابن سحنون أنه بينما كان يوزع عليهم في إحدى المرات مبلغا من المال بعثه إليهم الباي، وصلتهم أخبار بخروج بعض الإسبان من أسوارهم "فلم يكن إلا كلمح البصر حتى امتلأت بهم السبل الهابطة إلى البلد فأتوها فوجدوا الكفار دخلوا بلدهم وغلقوا أبوابهم دونهم، فحمل طائفة منهم على جماعة من النصارى في عسة لهم فأخرجوهم منها وجلسوا فيها يضربون نحو المدينة والأبراج إلى العشية، ثم رجعوا كأنهم أسود الغاب ، وحفظ الله ظاهر عليهم ولطفه مكتنف بهم[43]".

وإلى جانب مواجهة العدو في معارك نظامية، لجأ الطلبة إلى تضييق سبل العيش على الإسبان داخل المدينة، ومن ذلك أنهم في بداية حصار وهران، اكتشفوا منبع الماء الذي يزود المدينة عن طريق ساقية تجري تحت الأرض، فقرروا تفجيره لمنع الماء عنها. ولذلك اتصلوا بالباي حتى يمدهم بما يكفيهم من البارود لهذا الغرض، فاستجاب لهم وأرسل إليهم شخصا مختصا في ذلك ، إنه " ابن ناصف قائد الجير وكان له بهذا الشأن هندسة وتدبير، وبعث معه جملة وافرة من المحازم، لانجاد الطلبة الحوازم، فجعلوا اللغم بعد اللغم والبارود يعمل في الأحجار عمل الزلزال بالكفار، حتى أفضوا إلى غار في جوف الحجارة فانقطع حسيس الماء الذي كان يسمع وعدم ذلك الصيت[44]" ، أي أنهم تمكنوا من قطع امداد الماء إلى المدينة.

وكان الباي محمد الكبير قد أوكل إلى الطلبة مهمة مراقبة أبراج الإسبان وحصونهم، كالبرج الجديد والبرج الأحمر، وآخرين وزعهم على جبل المائدة وحواليه عسى أن يظفروا بالقبض على بعض الجواسيس والمغاطيس. كما كلف خمسمائة طالب بحراسة أهل فجيج الذين كان الباي قد استقدمهم لوضع القنابل تحت أسوار العدو لتهديمها، أما ما بقي من الطلبة فأمرهم بحفر المتاريس والأنفاق لوضع الألغام تحت الأبراج[45]. فتعددت مهام الطلبة بين القتال والحراسة والحفر.

ز- دفن الطلبة الشهداء في موقع المعركة:

لا تعطينا المصادر العدد النهائي للطلبة الذين استشهدوا في معركة الفتح النهائي، إلا أن ابن زرقة يتحدث عن قضية واجهت الطلبة فيما يخص دفن رفاة الشهداء، فنجدهم بعد المعركة يقررون نقل رفاة إخوانهم إلى مقرات سكناهم ليدفنوا هناك قرب عائلتهم. ولما وصل الخبر إلى الباي رفض ذلك رفضا قطعا، وأرسل أمره بدفن الطلبة الشهداء في مكان استشهادهم، اقتداء بسنة رسول الله ،صلى الله عليه وسلم في ذلك. وكان قد أرسل إليهم كتابا يبين فيه صواب رأيه ومما قال فيه:" كيف بكم تعلمون سنة النبي، صلى الله عليه وسلم ولاتعملون بها، وفائدة العلم العمل، أما تدرون أن سيدنا صلى الله عليه وسلم، دفن شهداء أحد بمصارعهم، ولم ينقلهم للمدينة المشرفة مع أنها أقرب العمارات إليهم، وأنتم تتلون الكتاب العزيز على الألسنة، لقد كان في رسول الله أسوة حسنة. فالمطلوب منكم الآن، هو أن تدفنوا من مات هنالك، وتكون مقبرة الشهداء من طلبة العلم مشهورة بذلك مقصودة للتبرك والزيارة والنسك "(46). وهكذا فإنه كان للباي فضل في تأسيس مقبرة للشهداء تضم رفاة الطلبة، حتى تكون معلما يبين الدور الكبير الذي قامت به هذه الشريحة من أجل تحرير وهران وطرد الإسبان منها.

وخلاصة القول، فإن مشاركة الطلبة في الفتح، سواء الأول أو الثاني، واستجابتهم لنداء شيوخهم وللسلطة السياسية، يبين لنا ذلك التلاحم بين الحكام والمجتمع في مواجهة الأخطار المحدقة بالبلد. كما يطلعنا على الدور الريادي لهذه الفئة في المساهمة في القضايا المصيرية للأمة، مثلما ساهم نظراؤهم الطلبة في الثورة التحريرية لـمّا تركوا مقاعد الدراسة والتحقوا بالجبال يوم 19 ماي 1956، أو مثلما شاركوا في بناء الدولة الجزائرية الحديثة بعد الاستقلال. ومن واجبنا اليوم أن نخلد أسماء أولئك الشيوخ الطلبة الذين كان لهم فضل في تحرير وهران، وخاصة الذين استشهدوا منهم في ساحة المعركة.

الهوامش

(1) - لمزيد من التوضيح حول فتح وهران الأول، راجع:

- الجامعي، عبد الرحمن الفاسي، شرح أرجوزة الحلفاوي، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 2521.

-وكذلك: الجزائري، محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد المحمية تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الطبعة الثانية، الشركة والوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981

(2) - حول هذا الموضوع أنظر المشرفي، عبد القادر بن عبد الله، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، دار الحياة، بيروت 1972 .

(3) - ابن سحنون الراشدي أحمد بن محمد بن علي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، سلسلة التراث، قسنطينة 1973، ص186 - 187.

(4)- Léon,l'Africain.Description de l'Afrique et des choses mémorables qui y sont continues (traduction de Jean Temporal), tome I,livre 4éme;Paris,1830,P612

(5)- Sir Godfrey,Fisher.Légende barbaresque,guerre,commerce et piraterie en Afrique du nord de 1415-1830(traduit et annoté par Farida HELLAL).O.P.U, Alger.1991,P68

(6) - بلبراوات بن عتو، المرجع السابق، ص114.

(7) - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص198 - 199.

(8) - نفس المصدر والصفحة.

(09) - ابن زرقة، أبو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2597.

(10) - سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، الطبعة الثانية، مؤسسة الوطنية للكتاي، الجزائر 1985، ص203.

(11) - ابن زرقة، المصدر السابق، ورقة 142.

(12) - المصدر نفسه، ورقة 114، وكذلك ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص234.

(13) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 235 .

(14) - ابن زرقة، المصدر السابق، ورقة98.

(15) - المصدر نفسه، ورقة 100.

(16) - نفسه، ورقة 105.

(17) - نفسه، ورقة 116.

(18) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص235.

(19) - ابن زرقة، المصدر السابق، ورقة 98 .

(20) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص235.

(21) - ابن زرقة، المصدر السابق، أوراق متعددة .

(22) - بلبراوات، بن عتو، المرجع السابق، ص141.

(23) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 117.

(24) - نفسه، ورقة 110، وكذلك بلبروات، بن عتو، المرجع السابق، ص139.

(25) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص235.

(26) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 98.

(27) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص233.

(28) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 98.

(29) - المصدر نفسه، ورقة 133 - 134.

(30) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص245.

(31) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 98.

(32) - نفسه، ورقة 114.

(33) - نفسه، ورقة 104.

(34) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 275 - 276.

(35) - المصدر نفسه، ص241 - 242.

(36) - يذكر ابن زرفة أنهم من سكان القبائل المجاورة لوهران، قام الاسبان بتعميدهم واعتنقوا الديانة المسيحية.

(37) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 114.

(38) - نفسه، ورقة 114 - 115، وكذلك ابن سحنون، المصدر السابق، ص 234 - 235.

(39) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص237.

(40) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 124.

(41) - المصدر نفسه، ورقة 140 - 141.

(42) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص239.

(43) - المصدر نفسه، ص 239 - 240.

(44) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 113.

(45) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 239.

(46) - ابن زرفة، المصدر السابق، ورقة 143.